

حول بيتين للخطيل بن أوس

الأستاذ السيد مصطفى غازي

عرض الأستاذ (أبو حيان) في العدد ٨٣٤ من مجلة الرسالة الغراء مثلاً من نظم الشعر القديم في كتاب «المجاء والمجاءون» للدكتور (م. محمد حسين) وكان مدار الحديث حول بيتين للخطيل بن أوس هما :

فدى لبي ذبيان راحل وناقى عشية يمدى بالراح أبو بكر
ولكن يدهدى بالرجال مهينة إلى قدر ما إن تقيم ولا تسرى
فالها الخطيل في حركة الزدة ، وأورد هذا الدكتور في مستهل حديثه عن نشأة الأحزاب السياسية في المجلد الثاني من كتابه .

وقد أحس الأستاذ أبو حيان (بالضرورة ناذع قلبه) وهو يقرأ هذين البيتين مضبوطين بهذا الضبط، صوابين على هذا النحو، وهما أن يتجاوز الدكتور البيت الأول فلا يعلق عليه بشرح أو تستر أو تمبرر . وإلا فكيف ص بكلمة « يمدى » دون أن يحس في البيت إشكالا ؟ كيف يمدى أبو بكر بالراح والحادي من يمدو الإبل بنتائه فتساق خلفه وتطرد وراءه حدائه ؟ كيف يمكن أن تكون الصورة حين تأتى الراح في موضع الحداء ؟ ... إن الأمر — في رأى الأستاذ أبي حيان — أيسر من هذا البناء . فالمدال في « يمدى » إنما هي ذال معجمة ذهب إجماعها . والعبارة في البيت الأول إنما هي « عشية يمدى بالراح أبو بكر » بمعنى يطمئن ويمرّق جسده ، كما هو الأصل في معنى هذا وأخراتها ، كعخذ وحذق وحذف وحزم .

ثم انتقل الأستاذ أبو حيان إلى البيت الثاني (فأنزعه أشد النزع) أن يعلق المؤلف عليه ، شارحاً له ، بقوله : « دهديت الحاجر فتدهدى دحرجت . هينة كذلك هي بالنس . لها من أهاب الإبل والخيل إذا زجرها قائلاً : هاب ، هاب فيكون المقصود أن هؤلاء الرجال يزجرون أبا بكر وجيوشه ويدفونهم إلى قدرهم وجيهم » وهاله أن يروى الدكتور « يدهدى » بصيغة المبنى المفعول ، وأن يحمّد عند « هينة » فيتمسك في تأويلها هذا التصرف . وإلا فكيف يمكن أن تكون « هينة » معدولة عما ينبغي أن تكون عليه باعتبارها من « أهاب » ؟ ومن ثم هؤلاء الرجال

الذين يزجرون أبا بكر وجيوشه ؟ أم رجال أبي بكر يريدون أن يزجروا أنفسهم ؟ أم هم يوذيلون يحمّاهم يتدحرجون كما تدحرج الحجارة ؟ ... إن الأمر في هذا البيت شبيه — في رأى الأستاذ أبي حيان — بالأمر في البيت الأول : تصحيف يسير قريب ولكنه أدى إلى ذلك الخلط العجيب . فليست كلمة « هينة » المؤلفة من فاء عطف لا يدرى ماذا تطفه وماذا تعطف عليه ، وفعل لا يعرف من أى أصل هو ، وتون نسوة لا موضع لها ، وضمر غيبة لا مرجع له — ليست هذه الكلمة أو الجملة إلا تصحيفاً قريباً لكلمة واحدة ، هي كلمة « مهينة » من الهوان وبذلك يكون البيت .

ولكن يدهدى بالرجال مهينة إلى قدر ما إن تقيم ولا تسرى ويدهدى بصيغة المبنى للفاعل لا للمبنى المفعول ، والفاعل هو أبو بكر ، وبذلك يستقيم البيت ويترد المنى ، دون تحذف للنحو أو مساندة للعرف أو معارضة للنطق .

ويبدو لنا أن الأستاذ أبو حيان قد أعجلته الرغبة في النقد ، وشغله الاهتمام بالتجريح والفرز ، عن أن يرجع إلى المصدر الذي نقل عنه المؤلف بيتي الخطيل . ولو أنه رجع إلى الطبري في تاريخه واسطع التحقيق والتدقيق في بحثه ، لأفاد من فهم الظروف التي لا يست هذين البيتين ، ولا طمأن إلى « يمدى » في البيت الأول كما اطمأن المؤلف ، ولم يجزم هذا الجزم العجيب بأن المثال إنما هي ذال معجمة ذهب إجماعها . فقد روى الطبري في تاريخه أن بعض الرتدة ، وفهم نفر من ذبيان أعدوا المدة للأنارة على المدينة ليلاً بعد أن خلفوا بعض رجالهم في ذي حى ليكونوا لهم ردماً . فأسرع أبو بكر لتقاتلهم « وخرج في أهل المسجد على التواضع إليهم ، فأنقش العدو ، فأتبعهم المسلمون على إيلهم حتى يلتزموا فاحمى ، ففرج عليهم الردء بأنحاء (١) قد تقهقروها وجبلوا فيها الحبال ، ثم ددهوها بأرجلهم في وجوه الإبل ، فتدهده كل نعى في بطوكه (٢) ، فتفرت إبل المسلمين وهم عليها — ولا تنفر من شيء تقارها من الأنحاء — فاجت بهم ما يملكونها حتى دخلت بهم المدينة ، فلم يصرح مسلم ولم يهرب . قال في ذلك

(١) جمع نعى وهو الزق أو ما كان للسن ساحة .

(٢) « قالوا » — كالمطيل — قيل يدهده فاقعة العابة .

الخطيل بن أوس أخو الخطيبة بن أوس ... الأبيات (١) « اه .
فأبو بكر ورجاله قد عادوا إلى المدينة إذن دون أن يصيب أحدهم
مكرهه (فلم يصرع مسلم ولم يصيب) ، ولم يطمئن أبو بكر أو عزق
جسده كما أراد الأستاذ أبو حيان أن يفرض ذلك علينا فرضاً .
وعلى ذلك فلا محل للجزم بأن الدال في « يهدى » إنما هي ذال
معجمة ذهب إجماعها . ولا غرابة بعد ذلك في أن « يهدى »
أبو بكر بالراح ، وأن يساق بها سوفاً كما تساق الإبل بالحاء .
فلاستماره في ذلك مألوفة مأثورة ، واستعمال الحاء هنا على
سبيل التهم كاستعمال القرى في معرض التنديد بالقتل ، وكاستعمال
البشرى في معرض التهديد بالعذاب .

ولو أن الأستاذ أبا حيان رجع إلى نص الطبري ، ولم تنجده
الرغبة في النقد والتجريح ، لعدل عما ارتأت إليه في البيت الثاني
من تأويل . فالطبري يحددنا بأن المرتدة هم الذين دهموا الأنحاء
في وجه أبي بكر ، وأن أبا بكر هو الذي دهمه بهذه الأنحاء ،
دهمه بها الرجال ، رجال بني ذبيان فيمن معهم من المرتدين .
وعلى ذلك فالقصة كما رواها الطبري تقتضي أن يكون « يدهدى »
بصيغة المبني للمفعول لا المبني للفاعل . وإذاً فلا محل للجزم بأن
الفعل مبني للفاعل ، وأن الفاعل أبو بكر ، وأن القصور بالرجال
هنا المرتدة من بني ذبيان . وليس يبيد أن تكون « فهينه »
التي تشكك المؤلف في أمرها قائلاً : (كذلك هي بالنص) والتي
حاول تأويلها قائلاً : (لها من أهاب الإبل والخيل إذا زجرها
قائلاً هاب هاب) — ليس يبيد أن تكون هذه الكلمة من
« الهاب » وهو زجر الإبل عند سوقها فقد جاء في لسان العرب
في مادة (ه ي ب) : « الهاب : زجر الإبل ، عند السوق ...
وأما الإهابة : فالصوت بالإبل ودعاؤها » . فلهاب إذن زجر
الإبل وتغييرها ، والإهابة دعاؤها وجمعها . والهاب — كما لا يخفى
على الأستاذ أبي حيان — مصدر من الفعل الثلاثي . فأى غرابة
في أن يكون الثلاثي من هذه المادة مستملاً ؟ وكيف تكون
(هاب) بعد ذلك بمهولة الأصل والمصدر منها موجود في معاجم
اللغة ؟ أما من ضمير النبوة في (فهينه) فرجسه أبو بكر في البيت

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبري ط لندن ج ٤ ص ١٨٧٤ ، ١٨٧٥

الأول . والنساء تمطت « هاب » على « يدهدى » . ويدهدى
فعل مضارع ، ولكنه يدل على الماضي هنا ، وإنما عدل به عن
المضارع لاستحضار صورة الحادث فكأنه يقع الآن أمام أعيننا .
والأمثلة على ذلك كثيرة نكتفي منها بما ورد في السيرة : « يأخذ
أبو الحيسر أنس بن رافع حفنة من تراب البطحاء فضرب بها
وجه إياس بن معاذ » (١) . وإذا كان استعمال ثوب النسوة هنا
غريباً ، وليس هناك ما يقطع بأن الشاعر القديم لم يقصد إلى
استعمالها قصداً . وما أكثر ما كان الشاعر القديم يخرج على
قوانين النحو والصرف ليقيم شعره . وما أكثر ما كان يخرج
على هذه القوانين نتيجة السهو والخطأ . فإذا أخذنا بعد ذلك
برواية الشطر الثاني من البيت (إلى قدر ، ما إن يقيم ولا يسرى)
— وهي رواية أوردها ناشر تاريخ الطبري في حاشية الكتاب (٢)
إذا أخذنا بهذه الرواية ، فقد استقام البيت واطرد المعنى ، إذ أن
عبارة (ما إن يقيم ولا يسرى) تعود بذلك إلى أبي بكر مصورة
حاله حين عاد إلى المدينة مضطرباً مغزماً قد أخذت منه الحيرة
والتفاجؤ كل مأخذ . وعلى ذلك تكون قراءة البيت :

ولكن يدهدى بالرجال فهينه إلى قدر ، ما إن يقيم ولا يسرى
أي أن رجال بني ذبيان يدهمون أبا بكر بالزقاق ، فيزجرونه
إلى قدره وقضائه ، وقد سدت في وجهه السالك ، وأعيتته الحيلة
وأخذت منه الحيرة ، وتأت منه التفاجؤ ، فهو لا يقيم ولا يسرى
ذلك — فيما نرى — أدنى إلى سياق القصة ، وأقرب إلى
روح العلم ، وما ينبغي لطالب من الأمانة في التدقيق ، ومن البعد
عن البت والجزم حين تحتمل المسائل أكثر من وجه . ولعل
الأستاذ أبا حيان واجد في كلنا هذه ما يشيع الرضا في قلبه فلا يحس
(بالحيرة تلذذه) ، وما يبيد الظلمة إلى نفسه فلا يسود (يشكو
إلى الله) أن ينهجم الجامعيون على الشعر القديم فيما يمرضون له
من محووث .

السيد مصطفى غازي

لباس في الآداب من جامعة داروق الأول

(١) السيرة النبوية لابن هشام ط المطبي ج ٢ ص ٦٩

(٢) تاريخ الرسل والملوك للطبري ط لبنان ج ٤ ص ١٨٧٥